الطالبة: أمينة فريك / الصفحات: من 57 إلى: 66
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

فاعلية الخطابات الإبداعية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إصلاح النشء -خطابات البشير الإبراهيمي أنموذجا-

The effectiveness of the creative discourses of the association's scholars in reforming young people - Al-Bashir Al-Ibrahimi's discourses as a model.

الطالبة: أمينة فريك
المركز الجامعي مرسلي عبد الله- تيبازة(الجزائر)
aminafrik96@gmail.com

*****

تاريخ الإيداع: 2022/05/09 تاريخ القبول:2022/06/15 تاريخ النشر: 2022/12/01

الملخص :

تأتي هذه الورقة البحثية لتتناول إشكالية جوهرية تتمحور حول دور الكتابات الإبداعية التي تحمل مقاصد كثيرة لجمعية العلماء المسلمين، في المحافظة على الثوابت الوطنية في ظلّ الواقع المرّ الذي تعيشه الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي. وإنّ إسهامات الجمعية في المسار الأدبي كان له تأثير كبير في توعية الشعب وذلك من خلال إيصال رسالة مشفرة تحمل من البراعة والبلاغة ما يجعلها بمثابة المؤثر الرئيسي في نفوس المتلقّين. ولعلّ الشيخ البشير الإبراهيمي كان ممن امتلك ملكة لغوية وأدبية ساعدته في إيصال مقاصده، المحمّلة بالقيم الإنسانية والدّينية، والتأثير بها على المخاطِبين.

الكلمات المفتاحية: جمعية العلماء المسلمين ; الإصلاح ; الخطاب الإبداعي ; البشير الإبراهيمي.

***ABSTRACT* :**
This research paper comes to address a fundamental problem centered on the role of creative writings that carry many purposes of the Association of Muslim Scholars, in preserving national constants in light of the bitter reality experienced by Algeria under the weight of French colonialism. The association's contributions to the literary path had a significant impact on raising people's awareness through the delivery of an encrypted message that carries ingenuity and eloquence, which makes it the main influencer in the hearts of the recipients. Perhaps Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi was among those who possessed a linguistic and literary faculty that helped him communicate his goals, which were loaded with human and religious values, and influence them on the addressees.
Keywords: Association of Muslim Scholars ; reform ; creative discourse ; Al-Bashir Al-Ibrahimi.

المقدمة:

يُعدُّ الاستيطان الفرنسي الذّي فُرض على الجزائر سنة 1830م حملة متعددة الأبعاد، عسكريّة الوسائل، صليبية الرّوح، حضارية الأهداف. ولم يكن الهدف منها السيطرة على الأراضي الجزائرية والانتفاع بخيراتها فقط، بل تعدى ذلك لتكون سياسة لغوية طبقت على الشعب الجزائري عن طريق التخطيط المحكم من أجل طمس الهوية الوطنية والقضاء على كل ما هو عربي، واعتبار البلاد ولاية

فرنسية تابعة للصهيون. ولم تكن الحملة الموجهة للجزائر عسكرية فقط، بل ساهم رجال الدين ورجال العلم والفكر في شن الحملة من زاوية أخرى، من أجل تمزيق وحدة المسلمين؛ لأنهم أدركوا أن انهيار الدولة الجزائرية واستمرار سيطرتهم مرهون بمدى تمكنهم من فك الارتباط بين الفرد الجزائري وعقيدته الإسلامية، فعملوا على تضييق التعليم العربي ومكافحة كل ما من شانه أن يبقي على اللغة العربية ويحافظ على وجودها. فحاولوا بشتى الطرق توجيه المؤسسات الدينية نحو ما يخدم أغراضهم في تشويه الإسلام ونشر المسيحية، ولم يتردَّدوا في حشد وتسخير كل الوسائل التي هدفت إلى طمس الهوية الجزائرية، وإلغاء الشخصية.

إنَّ الوضعية التي انتهى إليها حال الشعب الجزائري جعلته يفكّر في إيجاد طريقة تعمل على انتشالهم من هذا الوضع المهين، الذّي وضعته سياسة الاستعمار الفرنسي، وقد كان لرجال الإصلاح في الجزائر جهود حثيثة للحفاظ على الشخصية الوطنية، فتولوا مهمة تربية وإصلاح النشء عن طريق تأسيس جمعية أطلق عليها بجمعية العلماء المسلمين.

ولعلّ أبرز علمائها الشيخ الكبير محمد البشير الإبراهيمي الذي اتخذ من اللغة وسيلة، ومن الكتابة فنًّا ورسالةً، ومن العلم غذاءً تزوّد به من أجل بداية نشاطه الفكري والتربوي في دعوته نحو الإصلاح والتحرير. والأسئلة التي نحاول أن نجيب عليها في هذه المداخلة:

- ما هي الدعوة التي سعت إلى تحقيقها جمعية العلماء المسلمين؟ وكيف ساهم أدبها في الإصلاح؟
- وكيف ساهمت خطابات البشير الإبراهيمي في تعليم النشء وإصلاحه، وكذا الحفاظ على الهوية الإسلامية؟

1.جمعية العلماء المسلمين: الخلفية المعرفية.

1.1.أهداف الاحتلال الفرنسي وعلاقته بتأسيس الجمعية:

لقد كان الدّخول الفرنسي الذي حمل في عمقه بعدا حضاريا وبعدا ثقافيا، بمثابة المنطلق الرئيسي لتفكير العلماء العرب في تأسيس جمعية دينية علمية تهدف إلى محاربة التدنيس الفرنسي والقضاء عليه، وبمثابة خطرة رئيسية في استنهاض همّة العرب نظرا لحاجتهم الضرورية إلى مستند فكري إرشادي، يعتمدون عليه بشكل رئيسي في مواجهة الغزو الواسع الذي خلّف نتائج مأساوية في حق الجزائريين.

وإنّ حركة الاحتلال التي هدفت إلى السيطرة على المؤسسات الإسلامية والمساجد ومختلف الزوايا، كان مقتضاه تدمير الدين الإسلامي؛ لأنهم علموا مسبقا أنه الحصن المتين الذي يتمسك به الشعب من

أجل الحفاظ على هويته وإسلامه. فنجد أنّ الرؤيا الحضارية للاحتلال الفرنسي واضحة وبادية في تصريحات القائمين على المؤسسات الدينية والثقافية والعلمية والفكرية، وقد تبيّن هذا حين عبّر وزير الخارجية الفرنسي عن مضمون الرؤيا في قوله: إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب؛ أي أن محاولته في إيقاف الإسلام كانت أكبر هدف يحاول الوصول إليه ناهيك عما يمتلكه الشعب من أراضي[1]. فاتخذوا مجموعة من القرارات الصارمة التي أصدرت تعسفا في حق وواجب تعلم الشعب الجزائري لدينه ولغته، فاستبعدوا تدريس تاريخ الجزائر والعرب المسلمين وتدريس اللغة العربية بجميع علومها[2]. الأمر الذي حتّم على علماء الجزائر التخطيط لكيفية تساعدهم على الدعوة إلى العلم نظرا لسياسة الجهل الذي سعت فرنسا لتطبيقها على الجزائرين، فكان لزاما عليهم التّحرك من أجل الحفاظ على بنيتهم الذاتية، والحضارية والفكرية، وإنقاذ الإسلام وتجديد أمره وإحيائه. وهذا ما آل إليه مجموعة من الرجال أمثال فرحات عباس، ومصالي الحاج، وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، الذين قاموا بنقل حالة المجتمع من حالة فراغ إلى حالة الشعور بالوطنية والانتماء.

ونقول بمعنى آخر أن الذين حضرّوا للثورة بالمعنى الواسع للتحضير لا يمثّل سلاحا فقط والمتمثل في البندقية، بل بعث حضاري ووعي فكري سعى إليه العلماء الذين حضروا لانطلاقة التحرير، رغم التشذرم السياسي الذي كانت عليه البلاد ورغم هيمنة الاستعمار التي أوحت إلى كافة الناس بأنّ الجزائر فرنسية[3].

ونستطيع القول أنّ فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين تعود لعاملين أساسيين هما:

الأوّل: هو سيطرة الاستعمار الفرنسي الذي قام باستغلال الأراضي الجزائرية، وإخضاع مجتمعها بالقوة كعبيد لهم، واتضاح حقيقة الأهداف الفرنسية ومشاريعها الاستدمارية.

الثاني: تأكيد المصلحين الجزائريين والعلماء المثقفين لأكاذيب فرنسا، وانّ الغرض من مساعداتها بتقديم كل ما يخدم الشعب الجزائري مجرّد أكاذيب تستغلها للقضاء على هوية الشعب وضرب مقوّماته الوطنية، من أجل تسهيل ضمّ الجزائر للأراضي الفرنسية.

2.1. أدب جمعية العلماء المسلمين: دعوتها وغاياتها.

لقد هدفت الجمعية بالمقام الأوّل للمّ الشمل الجزائري وإحياء روح الوطنية في نفوس الجزائريين وترغيبهم في العلم والعمل، لذلك نجد الشيخ البشير الإبراهيمي يقول:" إنّ جمعيَّتكم هذه أُسّست لغايتين

شريفتين، لهما في قلب كلّ عربيّ مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدّين الإسلامي وإحياء اللّغة العربية"[4]. ولقد كان القصد منها هو محاربة الآفات الاجتماعية وكل ما يحرّمه صريح الشّرع وينكره العقل وتحجّره القوانين الجاري العمل بها. فكانت مبادئها منطلقة من الدّين الإسلامي معتبرة إيّاه دين الله الذي وضعه للهداية، ودين البشرية الذي يحفظ الكرامة الإنسانية[5]. وهي عبارة عن فكرة ومشروع كما ذكر الإبراهيمي مهمّتها هي "السير بهذه الأمّة إلى الحياة من طريق العلم والدّين"[6]. وإنّ وجود أدب الجمعية هو بمثابة وجود الحقائق التي سعى الاستعمار لتغطيتها، فسعت بكتاباتها إلى خدمة الأمة عن طريق الخطابات الإرشادية والوعظية والإصلاحية، وتعليم النشء ودعوته إلى عبادة الله والتمسّك بعقيدته والتسلّح بالصبر والثبات.

2. ظهور حركة الإصلاح الديني عند البشير الإبراهيمي:

يعود ظهور حركة الإصلاح الديني وازدهارها في الجزائر إلى جملة من العوامل يذكرها البشير الإبراهيمي فيما يلي:

إنّ الصحائف آنذاك كان لها دور كبير في إيصال فكر الشيخ محمد عبده، الذي كان يحمل في أبعاده دعوة إلى الإصلاح، ناهيك عن كتب السلف الصالح أمثال: ابن تيمية وان القيم الجوزية، والتي كانت كتبهم بمثابة التهيئة الأساسية بقبول دعوتهم الإصلاحية، فاستفادوا من مواضيع تفسير القرآن واستعانوا بها في مجالس الذّكر؛ من أجل بعث العقيدة في نفوس الجزائريين، ولا ننسى الثورة التّعليمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه التي عملت على التّربية الصحيحة، وهي بهذا تكاد تكون نّواة الحركة الإصلاحية؛ لأنّها هدفت إلى تكوين دعاة على أساس العلم والعمل، والقضاء على الجهل الذي غزا البلاد. بالإضافة من استفادتهم بعودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقّون العلم في البلدان العربية كالحجاز ومصر وتونس. وأخيرا يشيد الإبراهيمي أنّ الحرب العالمية الأولى كان لها دور كبير في رغبة الجزائريين في الإصلاح وكذا تهيئته وقبول تأييد حركة ابن باديس[7].

3. دور الكتابات الإبداعية في الصحافة الإصلاحية:

لقد بدأت كتابات العلماء في الظهور عندما شعر المصلحون بأهمية الصحافة في نشر مبادئهم وانتقاد الأوضاع الاجتماعية والدينية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك، ومن أهم هذه الصحائف نذكر: المنتقد، والشهاب، والإصلاح، والفاروق، والأقدام، والجزائر. التي كانت صحفا سياسية وطنية بجهود مفكرين أمثال ابن باديس والإبراهيمي وتلامذتهم. وقد كان من نتائجها التقاء رجال الإصلاح وتبادل آرائهم وتعويدهم على العمل المشترك والاتفاق على خطط منظّمة لمحاربة الفساد الاجتماعي والسياسي، ممّا دلّ على نضوج الوعي السياسي لدى العلماء[8]. وقبل أن تمثّل كتاباتهم خطابا يحمل قصدا استقلاليّا، حملت بالمقام الأوّل عبارات عالجت الضعف والجهل الذي حصر النّفوس في زاوية مغلقة لن

تستطيع تحديد ذاتها أوّلا قبل الولوج إلى الواقع لتحديد مستقبلها ثانيا. ونستطيع القول أنّ كتاباتهم الإبداعية كانت تتناسب بشكل كبير مع ما يحاولون الوصول إليه في الأخير، من خلال إقناع المجتمع بضرورة التسلّح بالعلم والتأثير عليهم من خلال استعمال أساليب مقصودة تنقل المخاطَب –المجتمع الجزائري- من حالة الخوف إلى حالة غضب ومن حالة غضب إلى حالة ألم.

4.دراسة في خطابات البشير الإبراهيمي:

1.4.تعريف الشيخ البشير الإبراهيمي:

هو "محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، نسبة إلى قبيلة عربيّة ذات أفخاذ وبطون تعرف بأولاد إبراهيم"[9]، ولد في قصر الطير بدائرة سطيف، وهي قرية تقع على مقربة من بلدة رأس الوادي، كان مولده فجر يوم الخميس في الثالث عشر من شهر شوّال سنة 1306 هجرية، الموافق للرابع عشر من شهر يونيو-حيزران- سنة 1889 ميلادية[10]. نشأ وترعرع في بيوت التقوى والعلم والدّين، وقد أتمّ حفظ القرآن الكريم على يد عمّه الشيخ المكي الإبراهيمي الذي كان له الفضل الأكبر في تربيته وتكوينه[11]. ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى حفظ العديد من المتون منها: ألفية ابن مالك، ومعظم الكافية لابن مالك أيضا، وألفيتي العراقي في الأثر والسير، ثم واصل الشيخ البشير التّعلّم والتّعليم في المدينة المنورة، وحضر لدروس العديد من المشايخ منهم: دروس الشيخ سليم البشري(1832/1917م)، والشيخ بخيت المطبعي(1854/1935م)، وزار العديد من العلماء والشعراء والأدباء أمثال: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم. فتفتحت ملكته الأدبية والإصلاحية والسياسية، وقام بتدارس أوضاع الأمة العربية ومستقبلها[12].

2.4.الممارسات الإبداعية التي تعتري خطابات البشير الإبراهيمي:

لقد كان البشير الإبراهيمي يمتلك تصوّرا واسعا وبعد نظرٍ رحبٍ، ساعده في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي من أجل إحداث تغيير اجتماعي شامل وعميق في أوضاع المجتمع آنذاك. فنجده ممن كان يتفقّ في الدّين ويدعو إلى العلم والعمل من خلال مجالس الوعظ والتذكير من أجل "تعريف المسلمين وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به"[13].

ومما هو معروف عن البشير الإبراهيمي أنّ البنية اللغوية لخطاباته تحمل أسرارا عميقة وهذا يجليه السّحر البياني الذي يأخذ من النحو العربي شروحه ومن المجاز البلاغي وضوحه ومن الفقه الديني طروحه، ليبعث في خطابه دقة وفعالية أكبر ولكن في المقابل يملأه الإبهام الذي قد يعتري خطابه الناتج عن كثرة استعمال الإيحاءات اللغوية التي لها قصد معين من توظيفها في أساليبه. إذن يمكننا أن نتساءل في هذا الصدد هل يستطيع القارئ العادي إدراك هندسة هذه العبارات وفلسفة رموزها؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يقتضي وجود عامل مهم في فكّ الإبهام الذي يملأ خطابات الإبراهيمي إن كانت خطاباته تتميز عن غيرها بالحبك الفني البليغ، ألا وهو التكوين الثقافي، فالعائق المعرفي هو الذي يصطدم به المتلقي وفاقد الكفاءة العلمية في قراءته للنص الإبراهيمي، ومن أهم كتاباته التي لقيت صدى بعيد على كل من المستويين الوطني والدولي نذكر: "سجع الكهان، القضية ذات الذنب الطويل، عادت لعترتها لميس،الشك في الإيجاب نصف السلب، إبليس ينهى عن المنكر، كلمات مظلومة"[14]، لذلك يجب أن تُقرأ كل مقالاته بعقل مفتوح، وقريحة علمية مزودة بمخزون فكري وثقافي خاص، وإن من متطلبات هذه الاستعدادات، ضرورة الاستعانة بقواميس موسوعية متعددة الاختصاصات من أجل التغلب على ظاهرة الإبهام وعقبة الفهم[15]، فتمكُّن القارئ من لغته الأم يُعدُّ عامل مهم في إزالة الغموض الأدبي عن مختلف الخطابات التي يواجهها مهما صعبت تراكيبها اللغوية.

وفيما يلي نذكر خطاب الإبراهيمي الذي مارس فيه من الإبداع ما جعل نصّه يتغنى بمظهر لغويّ محكم ساعده في إيصال مقاصده بأسلوب بليغ فصيح.

أما آن لعشاق سلمى أن يقولوا: صحا القلب عن سلمي؟

أما آن للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام؟

أما آن للمنتظرين أن يقطعوا حبل الانتظار؟

أما آن للمستعصمين بالأمل أن يريقوا صبابة الأمل؟

ترتبط دلالة هذه الجمل بالخطاب، ولا تستقل عنه، وقد أراد المخاطِب هنا التّوجه بكلامه إلى فئة معينة من الناس وهو الشعب الجزائري، معتمدا في ذلك أسلوبا إنشائيا يطرح للقارئ عدّة سياقات: ثقافية، تعليمية، تاريخية... ساهمت في إنتاج ملفوظه بهذا الشكل.

ونلاحظ من خلال عرض مضمون الخطاب غياب العلاقة الحوارية بين المرسل والمتلقي، بحيث يتشكّل تعبير واحد موجَّه فقط من المخاطِب (الإبراهيمي)؛ ذلك أنّه إذا أردنا التعبير عن الحوارية بالتبادل الكلامي، يستلزم في ذلك وجود تعبيرين كلاميين، الأوّل متمثل في الإبراهيمي، والثاني متمثّل في الجمهور وهو الشعب الجزائري.

ويتابع المخاطِب كلامه بمتتالية من الجمل الأحادية، لما تدلّ عليه من اتّصال بموضوع لحديث، وبأسلوب الاستفهام الذي يفيد غرض التلميح والتوجيه لا طلب الإجابة.

وعندما وجّه الإبراهيمي هذه الأسئلة إلى المتلقي لم يكن يقصد سؤالهم ولم ينتظر إجابة معينة منهم، بل كان الخطاب يلمح إلى الكثير من القضايا الوطنية والتي كان محورها الرئيسي استحالة تحقيق الوحدة

الفرنسية التي مازال ينتظرها الشعب الجزائري آنذاك فهو قصد إخبار الشعب بخطط الاستعمار تحت ذريعة الوحدة الفرنسية والتي لن تتحقق وما هي إلاّ خطة محكمة من طرفه من أجل الاستحواذ على المزيد من الخيرات العربية والقضاء على كل ما هو عربيّ وبخاصة الدين الإسلامي من جهة، وقصد توجيه الشعب من حالة الغفلة والضعف إلى حالة المقاومة الوطنية من جهة أخرى، مستندا على أساليب توحي بالثقة إلى من يسمعه.

3.4.المقاربة التلفظيّة في خطابات البشير الإبراهيمي:

1.3.4.القصد والمعنى في الخطاب:

لقد أشار أبو هلال العسكري إلى الارتباط الوثيق الذي يجمع بين معنى النص وبين القصد الذي أراده المؤلف فقال:" المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه، وقد يكون معنى الكلام في اللغة ما تعلق به القصد"[16]، إذ يعتبر الخطاب بذلك فارغ المحتوى إذا لم يتوفر فيه القصد فالأصل في الكلام هو ما يقصده المتكلم من منطوقه وليس الملفوظ في حدّ ذاته. وللمعنى مظهران عند ريكور" المعنى الذي يريد نقله قائل الخطاب والمعنى الذي ينقله الخطاب فعلاً"[17]، ويُفهم من ذلك أنّ المعنى هنا هو المحتوى الذي يخبرنا به المؤلف وهو "حاصل التأليف بين وظيفتين هما تحقيق الهوية والإسناد"[18]. حيث يرى أنّ حمل الخطاب لهاتين الوظيفتين شرط أساسي لتحليله.

وحول جدلية المتلقي والخطاب وأثر ذلك في استنطاق النّص والكشف عن جوهر المعاني الذي ترتكز عليه لغة الخطاب يشير نصر حامد أبو زيد إلى أنّ " تحديد المعنى المرجوح من المعنى الراجح في "الظاهر" أو "المؤول" تحديد مرهون بأفق القارئ وعقله"[19]، لأنّ مستوى الغموض والوضوح يحيلنا إلى الرجوع لحتمية الإقرار والاعتراف بدور القارئ في اكتشاف محاور النص ودلالاته، فالنّص إذن قابل للتأويل وسيرورته التأويلية تمثل كل الأبعاد التداولية التي يشملها الخطاب الأدبي.

2.3.4. السياسة والخطاب الإبراهيمي:

تعتبر السياسة من الأمور التي تتعلّق بشؤون الدّولة، والأحداث الداخلية التي تجري في البلاد. وإنّ أغلب خطابات البشير الإبراهيمي كانت تهدف إلى جعل المخاطَب يشاركه في آرائه وطريقة تفكيره، وكذا إيصال عواطفه الخاصة إليهم. وذلك بغرس أفكاره(المخاطِب) في أذهانهم بواسطة اللغة والكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكاره الأولى تغيير اتجاهها فتنصرف لتتبع أفكاره وأغراضه. وإنّ التحدّث بالسياسة يعني التعامل مع المخاطَب بمواضيع ثقافية، واجتماعية...الخ مرتبطة بالمستمع وتتعلّق ببناء مستقبله، فالمخاطَب يقوم بإثارة قضية معينة تتعلق بواقع المتلقي من أجل أن يتفاعل معه ويتّجه به إلى وظيفة الخطاب.

فالمقال السياسي في وعي الإبراهيمي احتلّ الصّدارة نظرا لظروف الوطن وتطور الأوضاع وتعقّد المشاكل وصراع المصالح بين النزعات الصليبية. حيث رأى الإبراهيمي أنّ الاستعمار عبارة عن دمار شكلي مضموني ظلّ

يكرس كل الوسائل التي تساعد في جعل الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وقد علم أنّ الأهداف الفرنسية لن تتمّ إلا بالقضاء على المقومات الشخصية الجزائرية، وبهذا كانت أكثر الخطابات التي تناولها تحمل بعدا فكريا واعيا يعرض من خلالها مدى خطورة الفرنسيين، وجلّ المكائد التي تكيد لها من وراء المساعدات المزعومة التي تقدمها للجزائريين. وهذا كلّه من أجل فضح الجرائم الاستعمارية التي طُبِّقت على شعب لا يملك وسائل للمقاومة لا ماديّا ولا معنويّا.

إنّ القضية التي كتب فيها الإبراهيمي هي قضية تحرير الدّين الإسلامي من السيطرة الفرنسية التي كانت تعتبر إشرافها على الدّين الإسلامي مسألة جوهرية، وقد أكثر جدال فرنسا في هذه القضية التي تمسّ الدين الإسلامي والهويّة العربية الإسلامية، وسدّ لها من الحجج الدينية والقانونية والتاريخية ما ينفعها للابتعاد عن هاته القضية، وعدم المساس بها من أجل المحافظة على الهوّية الوطنية العربية الإسلامية.

وعندما تأصّلت في إفهامه (الإبراهيمي) أسس بناء الشخصية الصّحيحة والسّوية على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة، أدرك أنّ الشباب هم من تقع عليهم مهمّة الحفاظ على الدّين والأمّة والتراث والمستقبل. ويقول الإبراهيمي مخاطبا الشباب في هذا الصّدد:

"يا شباب الإسلام وصيّتي إليكم أن تتصلوا بالله تدينا، وبنبيّكم اتباعا، وبالإسلام عملا، وبتاريخ أجدادكم إطلاعا، وبآداب دينكم تخلّقا، وبآداب لغتكم استعمالا، وبإخوانكم في الإسلام ولذاتكم في الشبيبة اعتناء واهتماما، فإن فعلتم حزتم من الحياة الحظّ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل"[(20)].

يفتتح المخاطِب كلامه بدعوة صريحة إلى التّمسك بالدين وإتباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، والعمل بأخلاق محمد والتخلّق بالآداب الإسلامية وحسن استعمال اللّغة. ثم يردف الكلام بمتتالية من الجمل المعطوفة فيها من الإبداع ما دلّ على خلفية المتكلّم المعرفية والدّينية، والمعرفة اللغوية بما فيها من قواعد تحكم المبنى والمعنى. كما ارتبطت دلالات هذه الجمل بالخطاب الكلّي ولم يسقط فعل المخاطبة فيها؛ لأنّ المخاطِب أراد بكلامه هذا التّوجه إلى فئة معينة من النّاس، والتي أعطاها الأولويّة في حق الاستماع، معتمداً في ذلك أسلوبا جهريّاً خاضعا لحكم التّصريح.

ونلاحظ من خلال عرض مضمون الخطاب، أنّ الخطاب موجّه بشكل مباشر إلى الشباب الجزائري دون ردّ استجابة منهم على ذات الخطاب، فالمخاطِب لا يريد التواصل مه المخاطَب بقدر ما يريد إبلاغه والتأثير عليه، وبالتالي إقناع جمهوره بما هو مقتنع به. ولهذا الغرض يستعمل المخاطِب(الإبراهيمي) جميع وسائل الإقناع المتاحة له، مستنداً على أساليب عديدة من أجل معالجة القضيّة المطروحة وبحذر شديد لمستمعيه.

ونرى أنّ الإبراهيمي قد ابتدأ حديثه بأسلوب النّداء الذي يفيد الدّعوة إلى الأمور المعالَجة من أجل دفع المخاطَب(الشباب) وإشراكه في عملية التّخاطب. لقد استعمل الإبراهيمي أساليب ومقاطع كلاميّة تعبّر

عن وضعية القضية المعالجة في واقع راهن ومؤلم، فقد التزم في أغلب كلامه بمقاطع مسجوعة، تكسِب الخطاب مرونة وتُحدِث رنّة في أذن السامع تجعله يستمتع بموسيقاه. وقد كانت هذه العبارات بمثابة الوصية التي ربطت آمال البشير الإبراهيمي بالمخاطَب، نظرا لاهتمامه الشديد بقضية الشخصية الوطنية العربية الإسلامية وكان قصده يتمحور في ضرورة إتباع نهج السّلف الصالح وأنّ قيادة الأمة نحو الأفضل لن يتمّ إلاّ بعوامل ناهضة نوجزها في النقاط التالية:

- الإيمان والوعي، والذّي يصدّقه العمل.
- التشبث بالهويّة القومية العربية وبالوطنية الجزائرية؛ لأنّ ضياعها يؤدي إلى العبث والفوضى.
- إتّباع المنهج السّلفي والاعتماد على القاعدة القرآنية "**إنّما المؤمنون إخوة**"(21)

لقد ظلّ الإبراهيمي يحاول إعداد الشباب من أجل تأهيلهم بشكل يتوافق مع ما تنتظره الأمة الجزائرية منهم، وهذا الأمر لن يتمّ إلاّ بالتهذيب الأخلاقي، والتّزوّد بالعلم، واتباع مبادئ السيرة النّبوية وسيرة الخلفاء الرّاشدين، وذوي الآثار الخالدة من الصّحابة والتّابعين، ومن يستطيع القراءة قراءة صحيحة، ويفهم فهما صحيحا، خرج بمال عظيم من دينه وقوميته ولغته وتاريخه. وبالتالي يكون عضوا حقيقيا فاعلا في أمّته صالحاً للحياة بها ومعها.

الخاتمة:

من خلال ما تمّ عرضه سابقا، نرى أنّ الجهاد الذي سعى إليه العلماء من أجل استرجاع الأراضي الجزائرية لم يكن جهادا مقتصرا على الوسائل الحربية فقط، وإنّما تعدّ ذلك ليكون حركة وطنية فكرية واعية اتخذها مجموعة من العلماء المسلمين كوسيلة لنشر الوعي ومحاربة الفساد، وقد كان البشير الإبراهيمي كالشعلة التي أيقظت الجزائر من خلال الثورة الفكرية والثقافية التي ميزتها قوة كلماته، ورهافة حسّه الوطني، وشجاعة رأيه، ومكّنته من استرجاع الهوية العربية الإسلامية، وهذا كلّه بفضل كتاباته الإبداعية التي عالجت المشاكل في ظل الواقع المرّ الذي عانوا منه آنذاك.

هوامش البحث:

1- ينظر:عبد الرشيد زروقة:جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر،دار الشهاب،بيروت/لبنان،ط1، 1999م،ص17.

2- ينظر: المرجع نفسه،ص31.

3- ينظر: أبو القاسم سعد الله،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،دار الغرب الإسلامي،بيروت/لبنان،ج4،/ط1996،1م،ص14.

4- أحمد طالب الإبراهيمي:آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت/لبنان،ط1 ، 1997،ص133.

5. ينظر:حمدي لكحل:إسهامات جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على الثوابت الوطنية،مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، الجزائر،المجلد02، 2021م،ص386.

6- أحمد طالب الإبراهيمي:آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ص142.

7-ينظر:مازن صلاح حامد مطبقاني:جمعية العلماء المسلمين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية،جامعة الملك عبد العزيز،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،د.ط.ت،ص من42 إلى45.

8- ينظر: المرجع نفسه:ص من 47 إلى53.

9- محمد البشير الإبراهيمي:من أنا؟ ،تح:رابح بن خوية،منشورات الوطن،الجزائر،د.ط،2018م،ص13.

10- ينظر:عادل نويهض،البشير الإبراهيمي –عظيم من الجزائر-دار الأبحاث للنشر والتوزيع،الجزائر،د.ط.ت،ص17.

11- ينظر:أحمد طالب الإبراهيمي:آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ص09.

12-ينظر: محمد عمارة:الشيخ البشير الإبراهيمي-إمام في مدرسة الأئمة-،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع،د.ط.ت،ص05.

13-عبد الرشيد زروقة:جهاد ابن باديس ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر،ص125.

14-أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ص09.

15- ينظر:المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

16- أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة،تر:جمال عبد الغني مدغمش،ط1، 2002،ص33.

17- بول ريكور: نظرية التأويل-الخطاب وفائض المعنى-،تر:سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء/المغرب،ط2،د.ت،ص14.

18- المرجع نفسه: ص38.

19- أبو زيد نصر حامد: القراءة التأويلية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة القصيم، دار وجوه للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض،1435هـ،ص52.

20- أحمد طالب الإبراهيمي:آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ص121.

21- سورة الحجرات:الآية10.